فلسفة الحمقى - إدانة ميشيل فوكو

لهشاشة العقل الأوربي واستيهاماته الأخلاقية

د. محمد عودة سبتي*

المقدمة

أسئلة حيرى غير مفكر بها على محمل الجد من قبل مؤرخينا العرب المعاصرين ... كيف نقرأ التاريخ ؟ كيف نفسر التأريخ ؟ في أي منطقة نشتغل ؟ كيف نستعرض التاريخ ؟ كيف نقرأ وثيقة ، وكيف نفسرها ، كيف نؤولها؟ قد تبدو أسئلة تقليدية والإجابة عليها سهلة ، وهي سرد الأحداث وربطها عبر حقب زمنية طويلة ، ويهمنا فقط التاريخ السياسي والديني والاجتماعي ونفصح عن ما هو أبيض ليبيض وجوهنا ونبعد الأسود لنبتعد عن مواجهة الحقيقية للكشف عن الحقائق التاريخية ، أو نؤدلجه وفقا لرؤيا سياسية أو دينية أو قومية ، وقد تطغى النزعة الذاتية على مواقفنا.

قد أكون مجحفا بحق مؤرخينا، ولكن ليس هذا هدفي من هذا البحث إنما لنعرف ما يدور من حولنا من متغيرات وتطورات علمية هي أمامنا، ولكنا غير مكترثين بها ، فهناك في الغرب ثورة في العلوم الإنسانية ومناهجها ونحن لم نأخذها على محمل الجد ، ومن هنا نستعرض أحد المفكرين والمؤرخين في مجال التأريخ ليس قدحاً له أو مدحاً وإنما لنتعلم كيف نطور أفكارنا ومناهجنا ليس بالتبعية ، وإنما بطرق التفكير.

كذلك إن نظرتنا الاجتماعية لكل الأمراض النفسية هي نظرة سلبية، فمازلنا ننظر إلى المرض النفسي مرضا معيبا لا يمكن البوح به خوفا من فقدان ثقة الآخرين بنا من جهة ، وانعدام الثقة بأنفسنا ، لذا نجد أن البحوث النفسية الخاصة بمجتمعاتنا لا تساوي شيئاً إذا ما قورنت بالبحوث الغربية. وهذا هو دافعي وهدفي من البحث الذي عنوانه ((فلسفة الحمقى إدانة ميشيل فوكو لهشاشة العقل الأوربي وإستيهامته الأخلاقية)) . المجنون ، البليد ، الأبله ، المعتوه ، المكتئب ، المهووس ، السوداوي ، الهستير ي ، الغبي ، المتخلف عقلياْ ، المختل نفسياْ ، الشاذ جنسياْ ، الدرويش ، المتوحش ، الساحر ، المشعوذ ، الفقير ، المعوز ، البخيل، المتسكع ،

---

* – كلية الفنون الجميلة – جامعة بابل

المتسول ، المخمور ، المنحرف ، المبذر ، المرابي ، المازوشي ، النرجسي ، الوقح ، الملحد ، المهذي ، العاهر ، الزاني ، المصاب بالجذام والعاهة ، ... الخ كلها ترمى في دائرة واحدة هي دائرة اللاعقل وقواه الرهيبة ، لا تفرق ، ولا تمييز ، ولا تصنيف ، ولا فصل بينهم ، إنهم جميعاً بكل منطق العقل وقواعده الثابتة إنهم مجانين لأنهم شاذون ، غريبو الأطوار يشكلون خطراً محدقاً بالمجتمع ، لذا ينبغي إقصاؤهم واستبعادهم ونبذهم ومطاردتهم وتهجريهم ونفيهم بكل قوة العقل وسلطته الرهيبة ، بل جلدهم وأحيانا قتلهم ، لأنهم ليسوا مرضى عقلياً أو نفسياً ، بل خارجين على القانون والأعراف والتقاليد الاجتماعية والقيم الدينية والآداب العامة ، ينبغي رميهم وإيداعهم وحبسهم ومعاقبتهم ومراقبتهم في دور الحجز والمارستان * ، والكنيسة ، والإصلاحية ، والمأوى ، ودور الشيخوخة، والمستشفى العام . إنها ليست دور للإستطباب الصحي والنفسي والعقلي ، بل إنها مؤسسات للنبذ والإقصاء والإبعاد والتهميش ، والإعدام أسوة بالمجرمين والخارجين عن القانون ، إنهم النموذج الأمثل لامتهان كرامة الإنسان واعتقال حريته ، إنها الفعل الأول لمفهوم الاستبداد ، إنها سلطته القصدية ، إنها الإستراتيجية العمياء ، إنها الخزان السري والثروة التي لم يكتشفها أحد من قبل ، إنها فلسفة تاريخ الجنون في العصر الكلاسيكي للفترة الممتدة بين " 1400 – 1900 " لميشيل فوكو ، إنها الكشف المخجل عن خفايا البنية الثقافية للمجتمعات الأوربية التي تدعي العقل الإنساني وتقدسه ، ولكنها في حقيقة الأمر تدنسه ، أي ليس لديها القدرة على الفصل بين مفهوم العقل واللاعقل ، إنها قصة تاريخ الطب النفسي والعقلي لتراث أمة وأخلاقها تدعى إنها تمتلك زمام المبادرة الإنسانية والحضارية ، إنها التجلي عن الخفي والمخبوء والمستور ، أنها النبش عن المسكوت عنه ، واللامفكر فيه ، والمستحيل التفكير فيه ، الذي سننطلق معه عبر تأريخ العصور الوسطى بكل معتقداتها وإيماناتها، وتاريخ عصر النهضة بكل كينونته وإنسانيته وعقلانيته ، وتاريخ العصر الحديث بكل علميته.

إنّ فوكو سعى وعبر التأريخ الأوربي للعصر الكلاسيكي أن يستنطق تأريخ الأفكار من خلال النصوص الأدبية والأعمال الفنية التي تتحدث عن الجنون ، والوثائق القانونية والتشريعية والدينية والطبية النفسية التي اعتقلت الجنون ، والقداسات الدينية التي تسعى إلى تخليص الروح من الجسد المجنون . إن فوكو لا يريد قراءة سردية أو تقيمية لنصوص الأدبية والأعمال الفنية

* – المارستان : هو مستشفى للأمراض النفسية والعقلية.

ومدى صلاحيتها من حيث معايير القواعد الأدبية والفنية المتخصصة بالشكل الفني أو المضمون، أو ما هي مدى الذائقة الفنية والجمالية لتلك المرحـــــلة من العصور . كما أنه لا يريد من مراجعة الوثائق القانونية لإثبات مدى صحة مصداقيتها أو بطلانها ، أو تجميعها أو أرشفتها وفقاً لتسلسلها الزمني ولا بيان مدى قدرة الله على استجابة دعوات المتوسلين وإكرام المنبوذين وإبداعهم في ارض الميعاد ، أو إثبات مدى صحة النظريات الطبية النفسية . إن فوكو يريد تفكيك دلالات المعاني في النصوص الأدبية ، والوثائق القانونية والقداسات الدينية والنظريات الطبية ، والنبش فيها وراء ظاهرة اللغوية من عبارات وجمل ومفردات وعلاقاتها بالمرجعيات الفكرية ولأنساق الثقافية التي تحكم طرق تداول اللغة وترسيخها في اللاوعي في العقل الجمعي للعقل الأوربي .
ويأخذنا إلى أبعد من ذلك إلى معرفة النسق الفكري وبنيته ووظيفته من حيث أهمية المنظومة المنطقية بكل ضجيجها وعجيجها ، من قضايا ومقدمات وحدود ، وعلاقة مبادئها من تضاد وتناقض وصراع لتلك البنية المنطقية للفلسفة الأوربية الموغلة في القدم إلى قدم أفلاطون و أرسطو التي قدست مفهوم اللوغوس " العقل " بكل تنظيماته و ثبوتاته وتصنيفاته وتقسيماته وآليات وتجريداته لمفاهيم الموجودات بشكليها المادي والروحي ، ليؤكد لنا أن هذه الأنساق ما هي إلا جنون ، فالمنطق هو جنون العقل ، واللغة هي جنون اللسان ، والمال جنون الاقتصاد ، والأخلاق جنون المجتمع والرغبات جنون الفرد ، و الدين جنون الله ، إن الجنون لحظة قاسية ، ولكنها أساسية في إواليات اشتغال العقل ، من خلاله يتجلى وينتصر العقل .

المبحث الأول

طقس الإقصاء

منذ البدء أود أن أشير إلى أنّ فوكو لم يضع تعريفاً محدداً واضحاً عن الإقصاء ، بل لم يفكّر أن يستخدم مفردة واضحة المعالم محددة الأفق عن هذا المفهوم الذي هو المحور الرئيسي أو الفكرة الرئيسة التي يشتغل عليها كُتاب تأريخ الجنون في العصر الكلاسيكي ألا وهي إقصاء المجانين عبر التاريخ الأوربي . لهذا نلحظ ومن خلال مسيرة قراءتنا أنه يستخدم مفردات متنوعة الدلالة والمعاني التي تشير إلى قصدية المعنى ذاته أي الإقصاء مثل : الاستبعاد ، النبذ ، الخلاص ، النفي ، السخرية ، التهكم ، الإكراه ، الردع ، العقاب ، القسر ، العنف ، التهميش ... الخ.

أولاً – تيه الإبحار : لقد ظهرت في العصور الوسطى أعمال أدبية وفنية تتحدث عن سفينة عائمة

في الأنهار والبحار ، حمولتها المجانين الذي يجب إبعادهم عن المجتمع ، وأحياناً يلقى بهم في البحر تخلصاً من أفعالهم الجنونية ، وإنّ هذه الأعمال كان لها علاقة بالواقع الأوربي وطرق تفكيره اتجاه الجنون . إن هذه السفينة هي " سفينة الحمقى"[1]. وبرزت فكرة الجنون من خلالها وبشكل مؤثر في النتاج الأدبي والفني لذلك العصر. " من بين الأساطيل الروائية أو الهجائية، هي التي كان لها وجود حقيقي، فالسفن التي كانت تنقل حمولتها الجنونية من مدينة إلى مدينة أخرى وجدت حقاً. ولهذا، فأن الحمقى كانوا يعيشون حياة التيه. لقد كانت المدن تطردهم من جنباتها ليلتحقوا بالبراري حيث يتيهون على وجوههم (2 – ص29) ٠ إنّ السفينة التي تحمل الحمقى في طياتها تحمل ثلاثة أبعاد : نسق التفكير ، الترابط المخيالي ، اليقين الاستبعادي .

1- نسق التفكير : إنّ سفينة الحمقى هي اللاشعور الجمعي الثقافي للمجتمع الأوربي الذي "يسبح في عالم غير مستقر وغير واقعي ، إنه موثوق بشدة إلى عالم اللامتناهي ، إنه يسير نحو العالم المجهول ، عالم اللايقين الرهيب الموجود خارج كل شيء (2 – ص30) . يشير فوكو بشكل واضـــح إلى أثر الجانب الدينـــــي في البناء اللغـــــوي للنصوص الأدبية ، وطبيعة المزاج الفكري ذات الصبغة الدينية الروحانية التي تؤمن بعالم اللامتناهي المشدود بشده إلى ما وراء الأشياء ، فالنهاية المأساوية لهذا الوجود تتأكد حقيقتها من خلال الجنون فيقول " إن تنامي الجنون واكتساحه الصامت هما اللذان يشيران إلى أن العالم قريب من كارثته النهائية . إن جنون الإنسان هو الذي يستدعي هذه النهاية ويجعلها ضرورية "(2 – ص38) . أي إنسان العصور الوسطى

---

[1] – هذه بعض الأعمال الأدبية والفنية التي يشير لها فوكو في العصور الوسطى :

a) "سفينة الأمراء" و "سفينة الصحة" و "سفينة السيدات" في عام 1952 لـــ سيمفورين شامبي Symphorien champier .

b) " سفينة الصحة " " بلوي شوت Blaw schute عام 1413 لـــــ جاكوب فان او ستون Jarob van Oestvoren

c) سفينة الحمقى في عام 1497 لـــــ برانت

d) سفينة الحمقى " و زورق المجنونات " عام 1497 لـــ جوسي باد Josse Bade

e) ومن الاعمال الفنية :

أ – من أعمال جيروم بوش Jerome bosch ، ولوحته " علاج الجنون " .

ب –من أعمال بريغال Brueghel ، ولوحته " سفينة الحمقى " .

ت –سنشر غيو مارشان Gayout ، ولوحته " الرقص الجنائزي " .

والمزيد من التفاصيل راجع تاريخ الجنون في العصر الكلاسيكي لفوكو في الصفحات ما بين ص 26 – 46 .

كان ذا تفكير قدري جبري يؤمن بحتمية القدر و يستجيب للإرادة الربانية التي تسعى إلى أن تضع قوانين الحياة وفقا لمشيئتها وإرادتها فـــ " الإبحار يسلم الإنسان إلى قدر غير محدد ، كل إنسان يسلم نفسه إلى قدره ، وكل رحيل هو بالقوة أخر رحلة. ففي اتجاه العالم الآخر يسير المجنون ، هذا هو في الوقت ذاته تمييز صارم، وانتقال مطلق. إنّ هذا الانتقال سيأخذ شكل صراع بين الثنائيات المتضادة " الوجود ــ العدم ، الخير ــ الشر ، الحياة ــ الموت ، الجسد ــ الروح " تلك الثيمات التي كانت تشغل بال إنسان العصور الوسطى ، في تأمّله ألاحتقاري للوجود ، فالأشياء كلها زائلة ، والجمال يصبح قبيحا ، والخير سينهزم أمام الشرّ ، " إنها واقعية العالم سيستوعب ذات يوم داخل صورة عجائبية في تلك اللحظة التي تتوسط بين الكائن والعدم الذي هو هذيان التدمير الخالص . إن العالم ، لم يعد ، إلاّ أنّ الصمت والظلام لم يلتفا حوله بعد ، إنّه يتأرجح في صرخة نهائية في الطرف الأقصى الفوقي الذي هو مباشرة النظام الرتيب للتحقق ، ففي ثنايا هذه الصور التي ستندثر سريعا ستضيع حقيقة العالم . إن لحمة الظاهر والخفي والصورة المباشرة واللغز غير الصريح ، عناصر ستنتشر " (2 – ص49) . تصبح هي " الخوف الذي يحرك كل الأسطورة المسيحية حول الإحساس التي أعطت الطقس القروسطي الكبير الضيافة معناه المطلق ، لذا أعطي المجنون الشخصية المقدسة رغم التيهان ، انه علامة دالة على الصليب (2 – ص84 – 85) .

ويلحظ هنا أنّ فوكو يساوي بين الجنون والموت في سفينة الحمقى من حيث :

أ- التأمل ألاحتقاري للوجود هو الخلق المشوّه.

ب- الجنون هو الحضور المسبق للموت .

ج- الموت هو نهاية الإنسان ونهاية الأزمنة .

د- الحياة ذاتها لم تكن سوى تفاهات .

هــ- إنهّ أمر كوني .

ولكنّ فوكو لم يتناول حرية الرأي في العصور الوسطى حتى نثبت مدى واقعية اختيار الأدب الذي أشار إليه فالأدب كان مسيراً من قبل رجال الدين وفقاً لميولهم ، وهذا ما بينه سارتر في كتابه (ما الأدب ؟) إذ يقول : " ومما يستحيل إدراكه أن يجمع الكاتب بين ممارسة حرية الفكر ، حين يكتب لجمهور يتجاوز عدده مجموع المختصين المحدد، وأن يقتصر نفسه مع ذلك على وصف ما تحويه القيم الخالدة والأفكار المسلم بها سلفاً. ففي العصور الوسطى كانت راحة الضمير لدى الكاتب من رجال الدين على حساب موت الأدب " (1 – ص82) . فالكاتب ينتمي إلى

الكنيسة ، والكنيسة مدرسة روحية فسيحة الرحاب ، تبرهن على خطير شأنها بما تبدى من مقاومة لكل تغير . وبما أنّ التأريخ والسلطة الزمنية شيء واحد ، وبما أن غاية الهيئة الدينية هي إقرار تميزها لتبقى هيئة ثابتة الدعائم في وجه الزمن (1 – ص82) .

ثانيا – الترابط المخيالي : إن المخيال الثقافي يسبح في عالم غير مستقر، غير واقعي ممّا يتيح الفرصة لنا بتحميله حمولات دلالية نستطيع أن نستقرء بواسطتها الثنائيات الألسنية "الدال – المدلول " وثنائية " اللسان – الصورة " بقدر حمولة سفينة الحمقى للمجانين فـــ " فوكو " يحاول أن يستخرج الرموز الدلالية من خلال النصوص "سفينة الحمقى" الذي يُحيلنا إلى نسق ، والذي بدوره يحيلنا إلى تأويل أو تعليق على النص . وسعى فوكو مبيناً ذلك بواسطة مفهوم الوحدة التي تجمع بين "اللسان – الصورة " ، بين المجسد لغويا ، وبين ما يقوله التشكيل "النص" الذي يغوص في تجربة آخذه في الانزياح عن اللغة " اللسان " من حيث يشكلان الشرح الفاصل بين عالم التناهي واللاتناهي ، بين الجسد ـــ الروح ، الحياة ـــ الموت ، الوجود ـــ العدم ، فالمعنى لم يمسك من خلال إدراك مباشر ، وكفت الصورة عن التعبير من تلقاء نفسها التي تمتلك المدلول ليس من النوع ألبرهاني ، ولا من طبيعة عرفانيةٍ ، وإنما من نوع معادلات خيالية كالحلم واللامعقول اللذين لا يمكن تعقلها ، ولكن يمكن أن يتشربا داخل المعنى اللذين يصبحان أشباح كوابيس تزداد قيمتها كلما ازداد التركيز على سحر الصورة من باب الإشارة للنصوص الأدبية، ويمكن أن نلخص رؤيا فوكو بطريقة الشفرات للعصور الوسطى على النحو الأتي (2 – ص 32 – 35) .

ت	الدال	المدلول
1	السفينة	أ – التنقل هي حياة التيه هي اللاستقرار ، هي غياب الجنسية ، والمواطنة ، والانتماء . ب – إنها رمز استهلالي للحجز .
2	البحارة	أ – هي السلطة المعرفية المسؤولة عن المجانين .

3	صخب البحر	أ – القدر المحتوم ب – عالم اللايقين ج – العبث د – الوجود والعدم هـ الفوضى
4	الماء	أ – الحرية ب – الحياة ج – التطهير د – الذاكرة
5	عمق البحر	أ – هي الرغبات ب – العقل الباطن ج – الخوف من المجهول
6	البرودة والرطوبة	أ – الكآبة ب– البهجة ج– اليبوسة د – القوة هـ – التحجر و – الجمود

7	الابحار	أ – رحيل النساء ب – فقدان الايمان بالله ج – عالم اللامتناهي د – اللامكان هـ اللازمان و – الضياع ز – الاغتراب ح – اللاوطن ط – البراءة

يبدو لي هنا أنّ فوكو انطلق من أحكام مسبقة في تأويله للنصوص الأدبية التي تتحدث عن الجنون متكئاً على النص الديني ومدى قدرته على إبعاث الرموز، ولكن ليس كلّ رموز ، وإنما فقط رموز التشاؤم للجوهر الديني هذا من جهة ، ومن جهة ثانية اعتمد على توليد المعنى الرمزي وليس المعنى الواقعي بحيث لم يطرح سؤلا : هل خلت الإنسانية من الرحمة ووصلت إلى هذا الحد من القسوة ؟ وعلى حد قول بول ريكور " ثمة تأمل حول الرموز حدث فجأة في لحظة معينة من لحظات التفكير ، ليجيب على وضع معين للفلسفة وربما للثقافة الحديثة . وإن هذا اللجوء إلى العتيق ، والى الليلي ، والى الحلم ، والذي هو منفذ أيضا إلى ولادة اللسان ، ليمثل محاولة من أجل الهروب من مصاعب قضية نقطة الانطلاق في الفلسفة. وإننا لنعرف الهروب المتعب ، إلى الخلف الذي قام به التفكير ، بحثاً عن الحقيقة الأولى ، وبشكل أساسي أكثر أيضاً ، بحثاً عن نقطة الانطلاق الجذرية التي يمكن ألا تكون ــ على الإطلاق ــ الحقيقة الأولى. ربّما يجب علينا أن نكابد من الخيبة التي تتعلق بفكرة الفلسفة من غير افتراض مسبق من أجل الوصول إلى الإشكالية التي سنستدعيها . وعلى عكس فلسفات نقطة الانطلاق، فإنّ تأملاً حول الرموز سينطلق بقوة اللسان وقوة المعنى الموجود دائماً هنا بشكل مسبق : إنه ينطلق من وسط اللسان الذي حدث من قبل حيث قيل كل شيء في السابق وذلك على نحو ما . وإنه ليريد أن يكون الفكر ، ليس من غير افتراض مسبق ، ولكن في كلّ هذه الافتراضات المسبقة ومعها . وبالنسبة إليه، فإنّ المهمة الأولى ليست

في أن يبدأ، ولكن في أن يتذكر من وسط الكلام (3 – ص 338 – 339) .

ثالثاً – اليقين الاستبعادي :

إنّ الجنون يُحارَب بكل أشكال الثقافة الأوربية ، و ممارساتها السلبية ، وهذه المرة ليس رحالة في عالم اللايقين كما في " سفينة الحمقى" ، وإنما استبعاد اجتماعي ونبذ دنيوي ، وشرّ لا بد من استئصاله لأنّه من عمل الشيطان ، وانتصار أخروي . إن المجنون يُستَبعد كما يستبعد المصاب بالأمراض المعدية . لقد أصابت أوربا موجة من الإمراض المعدية، ومنها مرض الجذام الذي حل وانتشر في أرجاء أوربا إبّان العصور الوسطى ، مما اضطر المصابين أن ينافسوا المجانيين على أسرتهم ، وكانوا المجانين يرتعبون خوفاً وقلقاً من هؤلاء المصابين بالجذام ، إلا أن العقل الأوربي رماهم في دائرة واحدة ، دائرة الاستبعاد من كل الأماكن العامّة والبيوت والمؤسسات الحكومية بل حتى الكنائس في قداساتها التي لا ترحم و لا تدع رحمة الله تنزل عليهم ، وهذا ما أشار إليه فوكو في القداس الذي اقتبسه من كنيسة فينا ، والذي يقول " يا صديقي إنّه ليرضى الله أن تكون مصاباً بهذا المرض ، وإنّها العناية منه أن يعذبك على الشرور التي ارتكبتها في هذا العالم " ، وفي اللحظة ذاتها التي كان يلقي الراهب و مساعدوه بالمريض خارج الكنيسة كان يقنع انه يشهد بذلك على وجود الله : " ومع انك تقصى الآن من الكنيسة ، وتُستَعبد من جوار القدّيسين ، فإنّك ما زلت تحت رعاية الله " (2 – ص26) .

يريد " فوكو " بهذا القدّاس الديني أن بيّن لنا مدى قساوة المعاملة اللا انسانية للمصابين بالجذام والجنون. وأنّ البنية الفكرية للمجتمعات الأوربية بنية لا واعية لا من حيث الشكل والمضمون لتلك الفترة ، فهي غير قادرة على التمييز بين الأمراض المعدية وغير المُعدية ، ولا قادرة على فهم العلاقة الإلهية بالعلاقة الإنسانية من حيث المضمون ، وبالتالي قدمت للأمراض المعدية فرائس سائغة سهلة المنال ، وأعطت للآخرة مزيداً من ضحاياه مسوغة ذلك بالإرادة الربانية . لان الجنون حقيقة أبدية بشكل ساخر(2 – ص60) ، لأنّه فرجة الآلهة ، إنه سمة من سمات الزمن اللامتناهي (2 – ص31) ، لأنّ الله قد أخفى على الحكماء أسرار الخلاص ، وهو بذلك أنقذ العالم من خلال الجنون ذاته (2 – ص53) ، فهو صَمّم على مواجهة العالم ، سيمنحه الظاهر ، وسيحتفظ بحقيقة الأشياء وجوهرها (2 – ص52) . لذا فإن الثقافة الأوربية آنذاك لم تعرف معنى المرض العقلي أو النفسي بل تنظر له لعنة سماوية أو خلل طبيعي ضرورة إصلاحه أو تعديله أو تغييره وذلك يتمّ عن طريق التعميد والصلوات و قراءة الإنجيل وبواسطة (الحضور

الإلهي) . ويمكن أن نستخرج الدلالات بين طيّات كتابات فوكو على النحو الآتي :

أ - إنّ وجود الداء واختفائه كليهما يكشفان عن غضب الله و رحمته.

ب - إنّ العذاب من المرض هو تجسيد لفكرة الخلاص.

ت - إنّها تؤكد على مدى قدرة الإنسان على الامتحان السماوي .

ث - إنّ الإقصاء من الكنيسة يمنحه شكلاً آخر من الانتماء إلى جماعة الآخرة هم الأكثر تعاوناً وإخلاصاً ووفاء .

ج - إنّها معرفة ممنوعة بسيادة الشيطان ونهاية العالم ، تبنى بالسعادة النهائية ، والعقاب الأقصى ، إنها القوى العظمى على الأرض .

د – إنّ الرغبة في الشفاء هي معجزة إلهية.

هـ – لا تتحقق السعادة إلا عن طريق الله و بواسطة الموت .

ولكنّ هذا الحضور الإلهي أدى إلى (غياب الأخلاق) في الواقع المُعاش من خلال :

أ – الإقصاء من الحياة ومن العيش مع جماعة الكنيسة شكل من أشكال الرذيلة (2 – ص44) ، يقبل الخطأ باعتباره حقيقة، ويقبل الكذب باعتباره واقعاً، ويقبل العنف والقبح باعتبارهما جمالاً وعدلا (2 – ص46) .

ب – التأمّل الاحتقاري للوجود ذاته إنه خلق مشوّه ينبغي تصحيحه وتعديل مساره فالعقوبة بالضرب بالعصي ، ليست شراً، وعقاباً ، إنها تصويب وتصحيح أخطاء الطبيعة (2 – ص37) .

ت – رفض إعطاء حقّ المجانين والمصابين بالأمراض المُعدية . أنّ المجانين كانوا محرومين من ولوج الكنائس . في حين الحقّ الكنيسي لم يكن يحرمهم من الحقّ في التعبد ، والكنيسة ذاتها لم تكن تتخذ إجراءات ضد راهب مجنون (2 – ص31) .

غياب الضمير الإنساني ، هو انعدام الشفقة الإنسانية و تغلّب النزعات الحيوانية وانتصار الشيطان (2 – ص35) .

يُلحظ أنَّ فوكو في موقفه اتجاه النص الديني لم يكن جديداً في إبراز قدرته التأويلية اتجاه الجنون فهو لم يخرج عن السمو الروحي الذي نادت به الكنيسة في العصور الوسطى ، كما انه لم يستطع أن ينبش عن أفكار جديدة عن المعنى الباطني للنص الديني للأخلاق ، كما لم يطرح خطاباً مخالفاً لذلك العصر ، وإنما رسخ حقيقته حيث لم ينتقل من مستوى فهم جديد إلى آخر يسمح باختراق وتحويل تراث موجود ومتراكم بإعادة اكتشاف أصوله المطمورة والدفينة والرجوع إلى

بداياته الأولية ، لأنّ الصراع بين رجال الدين والإنجيل قائم منذ اللحظات الأولى لتفسير النص لتطويعه لمصالحهم مما أدى به إلى الاعوجاجات والتحريفات والتشويهات، وعلى حد قول غادمير " بعض القواعد التأويلية العامة المستوحاة من فن الخطابة والنحو للعصور القديمة والتي تم شرحها وتوسيع وموضوعاتها في هذه الهيرمينوطيقا ، لا تبرر الأهمية الفلسفية التي قد نوليها لهذه الكتابات (4 – ص67) . هذا من جانب ومن جانب آخر ينبغي على مشكل التأويل ألا يحتكر الدعوة إلى مبدأ " التوقف على التأويل الذاتي (4 – ص68) . وهذا ما شار إليه امبرتو ايكو أيضا في موقفه اتجاه النص الديني والذي يرى (5 – ص42) :

١ – إن النص الديني نص مفتوح بإمكان المؤوِل أن يكشف داخله سلسلة من الروابط اللانهائية.

٢ – إن اللغة عاجزة عن الإمساك بدلالة وحيدة ومعطاة بشكل سابق ، إن مهمة اللغة ، على العكس من ذلك ، لا تتجاوز حدود إمكانية الحديث عن تطابق المتناقضات .

٣ – إن اللغة تعكس عدم تلاؤم الفكر. إن وجودنا في الكون عاجز عن كشف دلالة متعالية .

٤ – إن كل نص يدعي إثبات شيء ما هو إلا كونه نص مُجهض ، أي نتاج كائن يشكو من اختلال ذهني أو هو يريد أن يقول "كذا" و "كذا" فإنه ينتج سلسلة لا متناهية من الإحالات مثل "هذا" ليس "هذا" .

ب – الحجز وعاء النسيان :

إذا كان تيه الإبحار المتمثل بسفينة الحمقى التي ترمز إلى الجنون في أدبيات العصر الوسيط ، وإذا كان نسق التفكير والترابط المخيالي واليقين الاستبعادي يتمحور حول النصّ الديني الذي يُقصي المجذوم و المجنون من باحة الكنيسة، لكنه يقبل بالمكافآت الأخروية ، فإنّ الحجز ظهر في العصر الحديث ومع بداية القرن السابع عشر بإنشاء مجموعة كبيرة من دور الحجز ، وهذا يمنح وطناً ليس للمجنون فقط ، وإنما للفقراء والعاطلين والإحداث، ويمنحهم عملاً بلا منفعة ، " فمعنى الحجز يستوعب داخله غاية اجتماعية تسمح للجماعة بإقصاء العناصر الطفيليّة أو الضارّة، وعلى هذا الأساس سيكون هو الإقصاء العفويّ للعناصر غير القابلة للاندماج الاجتماعي (2 – ص103) . ولأول مرة كانت هناك مؤسسات للأخلاق ، حيث يتمّ الربط بين الاكراهات الأخلاقية والقانون المدني تُفرض عن طريق إجراءات إداريّة تعد ظاهرةً بالغة الأهمية حيث "يقوم الإخوة أو الحراس بأخذ الحمقى في نزهة في ساحة الدار بعد العشاء ، وفي أيّام العمل إنهم يقودونهم جميعاً والعصا في اليد كما يقاد قطيع من غنم . وإذا انسل احد خارج القطيع ، فإنه سينال الجزاء بسرعة فائقة تنهال عليه العصي بشكل عنيف قد يُصاب بعضهم بعاهات وآخرون

تهشم رؤوسهم ويموتون من فرط ما تلقوه من الضرب " (2 – ص145) . يجب أن " نشغلهم بالعمل أطول مدة ممكنة أو في الأعمال الأكثر شقاء وذلك بما تسمح به قوتهم ويسمح به مكان عملهم ، حينها وحينها فقط يمكن أن نعلمهم مهنة تتلاءم مع انتمائهم الجنسي وميولاتهم ، هذا في حدود وجود إرادة لديهم تؤكد رغبتهم في الإصلاح ، وكلّ خطأ يجب أن يعاقب بتقليل كميّة الأكل والزيادة في ساعات العمل ، و بالسجن مرة أخرى في المستشفيات المشار إليها ، ووفق ما يرتئيه مديروها " (2 – ص97) . لم يكن المجنون الضحية الأولى للحجز، بل كان فقط الضحية الأكثر التباسا والأكثر وضوحاً ، والرمز العنيد للقوى التي تقوم بالحجز إن العناد الرهيب للسلطة يوجد هنا وسط المحتجزين في هذا الحضور العنيد للاعقل ، " لقد وضعت دور الإصلاح وفق صرامة هندسية هي في الوقت ذاته معمارية وأخلاقية . فكل جزئيّة من الفضاء تشتمل على قيمة رمزية لجحيم اجتماعي دقيق . فجناحان من أجنحة البناء يجب أن يكونا مربعين وسيخططان للداء في أشكاله الخفيفة : فالنساء والأطفال من جهة ، وأصحاب الديون من جهة ثانية. وستعطى لهم الأسرة والطعام المقبول . وستكون غرفهم في مواجهة الشمس والمناخ اللطيف. ومن جهة البرد والريح ، سيوضع المتهمون بالجرائم الكبرى، ويوضع معهم المنحلون وأصحاب القلاقل وكل الحمقى المخلون بالنظام العام . وسيقوم القسمان الأولان بأعمال مجدية للصالح العام . أما القسمان الأخيران فستخصّص لهما أعمال تضرّ بالصحة التي يضطر أحياناً بعض الشرفاء إلى القيام بها . فالأعمال ستوزع تناسبيا مع القوة والرقة، ومع طبيعة الجريمة، وهكذا سيقوم المشردون والمجرمون والمنحلون بتفتيت الأحجار وصقل المرمر ومزج الصباغة، ويقومون بالعمليات الكيمائية المهددة عادة لحياة المواطن النزيه " (2 – ص439) .

يريد أن يوضّح " فوكو " هنا أنّ غاية الحجز ليست فقط هي إبعاد الحمقى التي هي العناصر الطفيلية والضارة بالمجتمع وإنما بروز مفهوم القوة الاقتصادية داخل فضاء الحجز باعتباره :

1- بنية للعمل والأخلاق الا*جتماعية* 2- ولادة تقنيات النظرية الطبية 3- تدشين العائلة الوهمية

١ -بنية العمل والأخلاق الاجتماعية :

ظهور بنية جديدة في الفكر الغربي وهي بنية العمل و الأخلاق الاجتماعية، فالحجز قد طور وبلور مفهوم العمل ليس من أجل الإنتاج وتحقيق الأرباح ، وإنّما من أجل إشغال الحمقى وتعزيز مكانتهم التي يمكن توضيحها في ضوء (الدلالة الاقتصادية) من حيث :

أ – إنّ استيعاب العاطلين ليس من أجل العمل، بل من أجل إخفاء البؤس فقط ، وتجنّب الآثار السياسية والاقتصادية المترتبة عليه ، فالعمل الإجباري يستمد معناه من هذا السياق ، ممارسة وضمانة أخلاقية في الوقت ذاته (2 – ص93) .

ب – إنّ لغة البؤس هي التي تدفع الإنسان إلى العمل، وليس القانون الطبيعي (2 – ص94) .

ج – إنّ العطالة هي تمردٌ على الطبيعة ، لأنّ الطبيعة تود أن تكون سخية ، وإنّ العطالة هي الانتصار الجهنمي للكسل الذي يقود إلى كلّ الرذائل (2 – ص95) .

د – إنّ العاطل لا يُطرد، ولا يعاقب ، بل يتم الاعتناء به على نفقة الدولة و لكن على حساب حريته الفردية فيما بينه و بين المجتمع قام نظام ضمني قسري: له الحق في الأكل ، ولكن عليه أن يقبل الإكراه البدني و الأخلاقي الذي يمارس الحجر (2 – ص88) .

إنّ هذا التشخيص لطبيعة الحجز في ميدان الترميز الاقتصادي والأخلاقي في العصر الحديث يوحي لنا ومن خلال تحليلات فوكو إلى ما يلي :

1–إنّ حجز الفقراء والمجانين في خانة واحدة هو عمل خيريّ وعقابٌ في آن واحد، فإطعامهم هو عمل إنساني، لكن حجزهم هو استلاب للحرية الشخصية، وسلطة للإكراه.

2–إنّه إشارة لفصل الدين عن الدولة، وانتصار البرلمان على الكنيسة، فالمجنون لا يقع ضمن دائرة نظام التوبة، وإنما الاعتناء به ضمن دائرة الدولة.

3–إنّه يشكل جواباً على أزمة اقتصادية عمّت العالم الغربي برمته، انخفاض الأجور وتفشي البطالة وندرة السيولة.

4–إنّ الخوف من الفقر هو الإحساس بالآخر ، وليس إحسان من أجل الله. لقد سلبت سلطة التجلي وقويت سلطة المؤسسة.

5–إنّ تشغيل الجنون يتعلق بوعي الإرادة السياسية من أجل المحافظة على النظام وعدم إحداث فوضى من خلال التسكع في الشوارع، وترسيخ هيبتها بالتأكيد على قدرتها على حجز من تريد.

أرى أنّ فوكو قد ركّز في بنية العمل على الدور الأخلاقي ، وأهمل دور النسق العقلاني لبناء المؤسسات الذي يفرزن مقولة "العمل" بين نوعين من الفعل : الفعل العقلاني والفعل الأداتي . فالفعل العقلاني هو فعل ذاتي أو اختبارٌ عقلانيٌ أو ربما تركيبٌ بين الاثنين أو استراتيجيات تقوم على معرفة تحليلية وهي تتضمن استنباطات من قواعد ذات سوية عالية (أنساق ، قيم) ومبادئ عامة ؛ هذه القضايا تستنبط إمّا صواباً أو خطأً ويحقق الفعل العقلاني أهدافا محدّدة ضمن شروط معطاة . أما الفعل الأداتي يتشكّل حسب قواعد تقنية تقوم على المعرفة

التجريبية . وهي تتضمن في كل الحالات تنبؤات مشروطة حول الأحداث القابلة للمراقبة، جسدية أو اجتماعية، وهي يمكن أن تتجلى بوصفها مقنعة أو غير حقيقية ، وينظم بوسائل قد تكون مناسبة أو غير مناسبة (6 – ص56) . وهنا يحاول النسق المؤسساتي أن يخلق حالة من التوازن بينهما للإطار المؤسساتي لمجتمع ما ، أو عالم الحياة الثقافي ــ الاجتماعي ، وبين ما تحت الأنساق للفعل العقلاني الهدف التي استقرت فيه ، إلى المدى الذي تتقرر فيه الأفعال عبر الإطار المؤسساتي تُقاد وتُقسر في الوقت ذاته من خلال توقعات سلوك متشابكة تبادلياً ومتفق عليها. وإلى المدى الذي تكون فيه متعينة من خلال ما تحت أنساق الفعل عقلانيّ الهدف تَتّبع نماذج الفعل ألأداتي أو الاستراتيجي (6 – ص58) . كما أشار إلى ذلك هابرماس أهمية الإطار المؤسساتي هو تفاعلات متوسطة رمزياً على النحو الآتي (6 – ص58) :

أنساق فعل عقلاني الهدف (مؤسساتي واستراتيجي)

الإطار المؤسساتي : تفاعلات متوسطة رمزية

قواعد موجهة للفعل	معايير اجتماعية	قواعد تقنية
مستوى التحديد	لغة متداولة متقاسمة مشاركة بين الذوات	لغة خالية من السياق
نوع التحديد	توقعات سلوك متبادلة	تكهنات وأوامر مشروطة
آلية الكسب	استدخال الأدوار	تعلم المهارات والمؤهلات
وظيفة نمط الفعل	المحافظة على المؤسسات (التوافق مع المعايير على أساس التقوية المتبادلة)	حل المشكلات (الوصول إلى هدف محدد في علاقات الهدف والوسيلة)
العقوبات لدى الإخلال بالقواعد	العقوبة على أساس جماعية الإخفاق في التسلط	انعدام النجاح : الإخفاق إزاء الواقع
العقلنة	تحرير ، فردية ، انتشار تواصل خال من السيطرة	تصاعد قوى الإنتاج ، توسع قوة التحكم التقنية

2- ولادة تقنيات النظرية الطبية : يستخدم الحجز كل أساليب التطبيب القديمة والحديثة في العصر

الحديث ، ولكن في نهاية المطاف سينتصر الفكر الطبي الوضعي من خلال محاولات تفسير العلاقة بين الدماغ والعقل ، فهو طب عقلي قائم على الملاحظة والتجربة على الرابط الجدلي بين الممارسة والتطبيق ، رابطا مدعما بمواجهة مباشرة بين الطب والمريض من خلال التقنيات على النحو الآتي :

أ – التقوية : إنّ التشنجات والاختلاجات في أمراض الأعصاب يعود إلى كون الليفة تكون بالغة الحركة أو بالغة التهيج ، أو شديدة الحساسية للاهتزازات . وفي جميع الحالات ، فإنها تشكو من غياب القوة. فخلف العنف الظاهري للجنون ، الذي يبدو أحياناً وكأنه يضاعف بشكل كبير من قوة المهووس ، هناك دائما ضعف خفي ، نقص جوهري في المقاومة. إنّ سخط المجنون ليس في الواقع سوى ضعف سلبي يجب إذن البحث عن علاج يعطي الأذهان أو الألياف ، قوة ولكنها قوة هادئة ، قوة لا يمكن في فوضى أن تهزها ،لأنها متضمنة منذ البداية في سير القانون الطبيعي . فيما يفرض أكثر من صور حيوية وقوة ، وهو صورة صلابة تشتمل على ثيمة مقاومة جديدة ، مطاطية فتية ، لكنها خاضعة ومدجنة . يجب البحث عن قوة مستقاة من الطبيعة من اجل تدعيم الطبيعة ذاتها (2 – ص325) .

ب – التطهير والانتشال : أبسط العلاجات ولكنّها أكثرها استحالة يكمن في إحلال دم صافٍ وخفيف تبعد حركته الهذيان من خلال خلق جراحات أو ندوب في ظاهر الجسم ، هي في الآن نفسه مركز للتعفن الذي لفظه الجسم ، وبؤرة للإفراغ نحو العالم الخارجي من خلال انتشال المواد المفسدة ذاتها ، أو من خلال تذويبها (2 – ص327) .

ج – الغطس : إنّ الماء باعتباره سائلاً بسيطاً وأولياً ينتمي إلى ما يشكل الصفاء داخل الطبيعة ، فكل التغيرات السيئة التي ألحقها الإنسان بالخير الأساسي للطبيعة لم تنل من الطابع الخير للماء ، فصفاء الماء يستمد معناه من جديد داخل هذا الفعل المنعش الشفاف وبدأت العودة من جديد إلى براءة الماء . ولكن في ذات الوقت ، فإن الذي أدخلته الطبيعة في تركيب كل الأجسام يعيد لكل واحد توازنه الخاص. إنه يستعمل كناظم فزيولوجي كوني (2 – ص331) . لذا فإنّ الماء يمارس سلطة في الطبّ تجعله في المرتبة الأولى ، خصائص إضافية ، في حدود أنه قادر على امتلاك سمات كالبارد والساخن ، هي الانقباض والانتعاش والتسخين، بل يمكنه امتلاك قدرة على التدعيم ، وهي الصفة التي تسند عادة إلى الحديد (2 – ص333).

ح – انتظام الحركة : إذا كان صحيحاً القول إنّ الجنون هو حركة غير منتظمة للأذهان ، حركة

متنافرة للألياف والأفكار ، فهو أيضاً احتقان للجسم والروح ، وركود للأخلاط ، ثبات الأفكار والانتباه ، لذا يجب تحديد حجم الحركة ومراقبتها وتجنب تحولها إلى تهيج فارغ للألياف المتمردة على ما يقتضيه العالم الخارجي (2 – ص336) . الذي يؤدي إلى العودة إلى العالم ، الثقة في الحكمة من خلال احتلال موقع داخل الانتظام العام (2 – ص338) .

على الرغم من أهمية التقنيات الطبية وحيازتها مصدر الصدارة في تطبيب المجانين التي أشار لها فوكو إلاّ انّه لا يتردّد عن الإفصاح باستخدام طرق وأساليب قديمة مرتبطة بالسحر والشعوذة والأعشاب الطبية التي تستخدم كتقنيات للعلاج تكشف عن أهم العلاقات الفلسفية بين الجسم والعقل ، فعلى سبيل المثل :

1- العفيون : وهي مادة تستعمل لأوجاع الرأس وهو خليط من الأجزاء الكحولية والهوائية وهذه الأجزاء تنتشر بسرعة بمجرد ما يمتص الجسم العفيون (2 – ص371) .

أ- قيمة العفيون هو دواء كوني ، ولكن قيمته ليست مستمدة من خاصية لا توجد عند غيره وتحتوي على قوة سحرية . إن أثره واضح يقوم بإزالة الإحساس.

ب- نمط العلاقات بين العفيون والجنون :

a) فيه سرّ يضعه في اتصال مباشر مع مصادر الحياة.

b) العلاقة بين العفيون والمرض علاقة مزدوجة .علاقة غير مباشرة توسّطية ، ومشتقة من تسلسل ميكانزيمات متنوعة .

c) علاقة مباشرة دون وسائط وسابقة على أيّة سببية خطابية .إنه مفعول يتم وفق ميكانيكية طبيعية ، ويعود هذا إلى أنه تلقى سرا من الطبيعة.

d) علاقة أصيلة ، وضعت العفيون جوهرا روحيا وروحيا في الوقت ذاته " روح الحياة " . إن تلك الارواح الثاوية في العفيون هي الخزان الأمين لروح الحياة التي حباهم الله فيها .

2- الحلتيت : وهو جذع نبات له رائحة كريهة مهمتها طرد كل الرغبات السيئة والشهوات المحرمة التي كانت فيما تصعد إلى الصدر والقلب والرأس والدماغ والرحم المتحرك ذاته من جسم هستيري ،يمارس سلطة على الجسم ، هي سلطة الجذب والنبذ على الأعضاء المتحركة للجسم الإنساني .هي سلطة الطرد التي تصبح طرداً مثالياً. خارج مكانيكية للحركات العكسية . مجرد

مجهود لخلق التوازن الحد من الإحساس وإلغائه في نهاية المطاف (2– ص322–323) .

3– الأحجار الكريمة: هي الكنوز الغامضة التي تحمل في بريقها ثروة ولعنة في الوقت ذاته (2 – ص319) .

أ– أللازورد : إذا وضع في البد يقوي البصر ويحافظ على نشاط القلب . ويقوي أيضاً من الذاكرة ويساعد على مقاومة موجات الشهوة. إذا غسل وهيئ بشكل جيّد ،فإنّه يصفي المزاج العصيب دون خطر .

ب– الزمّرد: إنّ ميزته الأساس هو السهر على الحكمة والفضيلة ذاتها.

على الرغم من أن فوكو يشر إلى أهمية الدور العلمي وتطوره اتجاه مرض الجنون ، واستخراج بعض الترميزات الفلسفية ، وابتداء العلم يرسم ملامح طريقه المنهجي من جهة ومن جهة أخرى أن بعض طرقه تعود إلى الإغريق ، إلاّ أنه لم يشير إلى أنّ مبادئه لتلك الفترة (القرن السابع عشر) استخرجت من أحضان الفلسفة ، كما أشار إليها برغسون الذي طرح سؤلاً مهماً : كيف توصّلت فلسفة القرن السابع عشر إلى فرضّية التوازن الدقيق بين النفس والجسد = الدماغي والفكري ؟ ويجيب برغسون : لم يكن ذلك بفضل علم التشريح ولا علم وظائف الأعضاء (الفيزيولوجيا) ، بالنسبة إلى الدماغ : وقد كان علمَين حديثَي العهد جداَ ؛ ولم يكن ذلك بفضل دراسة بنيَة ووظائف وأعطاب الفكر . كَلاّ . إن هذه الفرضية قد استخرجت من المبادئ العامة في الميتافيزيقا، صُمّمَت ، في معظمها على الأقلّ ، لتجسيد طموحات الفيزياء الحديثة (7 – ص38).

كذلك خلط فوكو بين المعرفة العامية والمعرفة العلمية في دراسته للجنون ، ولم يشير إلى التعارض بينهما ونستعين برأي باشلار الذي يرى : بإمكاننا الإشارة إلى الصعوبات التي تلاقيها المعرفة العلمية في التخلص من القيم الكبرى ، القيم الكونية التي تحكم المعارف العامية (8 – ص200) . أولئك الذين يرون الأشياء العامية مبادئ لعلم معين ، قلما يستطيعون الإفادة من قيم الالتزام المميز للمعرفة العلمية ، بينما المعرفة العلمية هي كل معرفة قابلة دائما للاختزال ، بالتحليل النهائي ، في الإحساس (8 – ص204) .

لكن رغم هذه الانتقادات ، هذا لا يعني أن فوكو لم يكن على وعي تام بهذه الصعوبات التي واجهت قراءتَهُ للجنون في أهمية التشكيلات الخطابية فهو يقول " التشكيلة الخطابية التي يسمح الطب العقلي كفرع معرفي ، برصد وجودها ، لا تشمله هو وحده ، بل تتعداه بكثير وتتجاوزه من

كلّ جانب . يُضاف إلى هذا ، إننا بالرجوع إلى الوراء وببحثنا في الفترة الزمنية التي سبقت قيام الطب العقلي في القرنين السابع عشر والثامن عشر ، وتنقيبا عما قد يشتبه فيه أن يكون تمهيداً له ، تبيَّن لنا عدم وجود أي فرع معرفي سابق : وما كان الأطّباء يطرحونه من آراء ، حول المسّ والاكتئاب والهذيانات والامراض العصبية ، في الفترة الكلاسيكية ن لم يكن قطعا ، يشكل فرعاً معرفياً قائماً بذاته ، بل ، كان على الأكثر ، باباً من أبواب تحليل الحميّات وتغير الأمزجة ، أو إصابات الدماغ . بَيد أنه رغم غياب كل فرع معرفي قائم الذات ، كانت ثمة ممارسة خطابية تفعل فعلها ، لها انتظامها وقوامها الخاصين . وهي ممارسة كانت تستثمر في الطب ، بطبيعة الحال ن لكنها كانت تستثمر كذلك القوانين الإدارية والنصوص الأدبية والفلسفية ، وفي محاسبة الضمير ، وفي نظريات ومشاريع العمل الإجباري ومساعدة المُعوزين . في الفترة الكلاسيكية ، نحن أمام تشكيلة خطابية ووضعية من الميسور وصفهما وصفاً كاملاً ، ولا يقابلَهما أي فرع معرفي ما يمكن مقارنته بالطبّ العقلي (8 – ص204) .

3ـــ تدشين العائلة الوهمية :

ظهر المارستان وهو مستشفى للإمراض النفسية والعقلية بدلاً لدور الحجز التي تساوي بين المجنون والبئيس والمجذوم والمجرم والمصاب بالأمرا ض التناسلية ... الخ . مع بدايات القرن التاسع عشر ، إنه العائلة الجديدة التي تنظر إلى الجنون كطفولة القاصر، أو مظهر منه لا حقَّ له في الاستقلالية ، إن الجنون (طفولة) فهم يعتبرون " أطفالاً لهم فائض من القوة يستعملونه استعمالاً خطيراً ، يجب أن يعاقبوا ويكافؤوا ، فكل ما هو بعيد لا تأثير له عليهم . يجب أن يخضعوا إلى نسق جديد من التربية ، ويعطى لأفكارهم مسار جديد ، يجب إخضاعهم أولا وتشجيعهم بعد ذلك ، يجب دفعهم إلى العمل وجعل هذا العمل شيئاً رائعاً من خلال وسائل جذابة " (2 – ص495). من خلال هذا النص يمكن أن يبين ما يلي :

1- القصور القانوني الذي يوضع داخله المجنون كانت الغاية منه حمايته باعتباره ذاتاً حقوقية .

2- عالم المجنون صورة ملموسة للراشد أي صور للسيطرة والتوجيه للمجنون كذاتٍ سيكولوجية (2 – ص495) .

3- المارستان إنّه استلاب النقاء الأبوي ، إنّه رمز لاغتيال الأب الحقيقي (2 – ص495) .

4- تأسيس عائلة وهمية تحيط بالمريض، فهي محاكاة مؤسسية ساخرة ، ولكنّها وضعية

سيكولوجية واقعية .

5- المارستان يحافظ على الأحمق داخل الخيال الضروري للعائلة ، سيظل المجنون قاصراً وسيحافظ العقل على موقعه كأب له (2 – ص498) .

6- يجب ألا يكون الدين جوهراً دينيا للحياة داخل المارستان، ولكن فقط أداة طبية (2 – ص498).

لكن على الرغم من هذه الانتقادات الموجهة لهشاشة العقل الأوربي واستيهاماته الأخلاقية من قبل فوكو ، إلا إنّه لا يمنع من تعزيز (نظرية المساعدة) داخل دور الحجز والتي أوجزها بدور الإحسان والرابط الكوني :

1- دور الإحسان : ويقسم إلى ثلاثة أنواع :

أ- الإحسان الطبيعي : وهو إحساس حميمي يولد معنا ويتطور إلى حد ما ، ويمنحنا القدرة على الإحساس بالبؤس وإعاقات أخينا الإنسان .

ب- الإحسان الشخصي : وهو هبة الطبيعة، تدفعنا إلى الخير الخاصّ .

ج- الإحسان العقلاني : المتطابق دوماً مع مبدأ وجودنا ، ويحتوي على إحساس حميمي واسع يدفع جسم الأمة إلى إصلاح الشطط الذي يتم إدانته والاستماع إلى الشكاوى المعروضة عليه وإرادة الخير التي هي جزء من نظام الأشياء الممكنة (2 – ص426).

2- الرابط الكوني : ويتمخض بما يلي (2 – ص427) :

أ- الالتزام المطلق اتجاه المجتمع ؟ فهل الدولة التي يجب أن تكفل المساعدة ، فهل تبني المستشفيات وتوزع المعونات.

ب- الرابط الذي يجمع الألم بالمواساة. فعندما يشعر الإنسان بالألم ، فإنه يبحث أولاً في ذاته عن التخفيف من هذا الداء الذي حيويته ليست ثابتة، وقوة غير محددة .

أود أن أشير هنا إلى أن فوكو قد ركز بحيوية على العلاج المؤسساتي الذي يرعى المجنون ، وهو ما يسمى في علم النفس "العلاج المحيطي الافتراضي" الذي ينبغي أن تتوفر فيه جملة من الشروط لرعاية المريض النفسي (المجنون) ، ولقد ركز من خلال ذلك على الهدف

البعيد المدى وهو رعاية المجنون عن طريق المؤسسة (العائلة الجديدة) وهو علاج لم يكن جديداً يعود إلى أيام الرومان والحضارة الإسلامية .

لكنَّ فوكو لم يشر إلى مدى قدرة المجنون على التفاعل مع العائلة الجديدة ومدى تقبله للتعاون معها ، لقد حوله إلى آلة صرفة نحركها كما نشاء ، علماً يُبقي المجنون روحاً وجسداً وليس جسداً فقط كما يسعى فوكو لتطبيق تقنياته هذا من جانب ، ومن جانب أخر هناك أنواع من العلاجات تستخدم داخل المؤسسة كان من الضروري أن يشير إليها: " كالعلاج الوقائي أي منع قيام الحالة المرضية ، العلاج الغذائي أي نوع الغذاء، العلاج النفسي : أي المراعاة النفسية، العلاج العائلي : أي تاريخ عائلة المريض ظروفه ، وغيرها من العلاجات (12 – ص273 – 283) .

كذلك فوكو في تدشينه للعائلة الوهمية رسّخ الفكرة السوداوية لمقتل الأب الحقيقي التي نادى بها فرويد من خلال عقد أوديب ، لكنه لم يخالف فرويد بهذا الشأن واتّبع وجهة نظره التي تقول " إنّ المجتمع الإنساني الكبير سيحلّ محل الأب أو الوالدين وهو نوع من استبطان السلطة بفضل ظهور أنا أعلى . فعندئذ تسمو ظاهرات الضمير الأخلاقي إلى مستوى مختلف ، ولا يجوز الكلام أصلاً عن الضمير والشعور بالذنب إلاّ متى طرأ هذا التغيير . واعتبارا من هذه اللحظة يسقط أيضا قلق الإنسان من افتضاح أمره ، ويمحي كليا الفرق بين اقتراف الشر وإرادة الشر ، لأنّه لا يمكن لشيء أن يبقى مخفياً عن الأنا الأعلى ، ولا حتى الافكار والخواطر. بَيّد أنّ خطورة الموقف الفعلية تكون قد اضمحلت بحكم السلطة الجديدة ، الانا الاعلى ينعدم لديها أي مبرر، على ما نعتقد ، لإساءة معاملة الأنا الذي تربطها به عروة وثقى (11 – ص91) .

لكن يتفق "ألان تورن" مع فوكو في إنّه " لا تنفصل الحركة الكبرى في عزل المجانين من القرن السادس عشر حتى القرن التاسع عشر عن ما أحدده هنا بالحداثة ، أي خلق مجتمع متمركز حول ذاته ومنفصل عن العالم الإنساني وعن الطبيعة وعن الآلهة في وقت واحد ، بينما كان المفترض أن المجانين تسكنهم قوة إلهية وتسيطر عليهم الطبيعة التي تنفصل عنها الثقافة دون أن تُقطع تماما معها ، وعندما يتحدد المجتمع بفعله الخاصّ فقط ، لا يكون للمجنون مكاناً فيه ، ورغم ذلك هو غير مستبعد . إنه محبوس ، وهو ما يعني العكس تقريباً ، بما أنّ المجتمع يرى ضرورة إعادة جعل المجنون اجتماعياً والذي يتحدد اغترابه في الواقع كقطيعة مع المجتمعية (10 – ص229) .

النتائج

1– لم يسبق فوكو احد في تناول الجنون كموضوعاً وقضيةً وخطاباً فلسفياً وبالتالي استطاع أ ن يعيد للجنون كرامته وهيبته.

2– فتح حوار بين العقل واللاعقل والجنون وهذه الثلاثية كشف فوكو عن صراعها في السيطرة وممارسة السلطة احدها على الآخر من جهة وتمركز وتهميش أحدها على الآخر من جهة وتمركز وتهميش أحدهما على الآخر من جهة ثانية .

3– لقد حلّل خطاب الجنون من قاعدتي (المقولة والفكرة) من جهتين أولا: اللفظ والمعنى أو الدال والمدلول من جهة اللغة ، وثانيا من جهة المنطق الموضوع والمحمول أو السبب والنتيجة ليس تحت مفهوم الجملة أو القضية ، وإنما تحت مفهوم الخطاب او العبارة ، والعبارة حاملة للدلالة اللغوية والمنطقية.

4– لقد أكد على البنية اللاواعية للأخلاق الأوربية التي أحكمتها أخلاق المنطق ، ومنطق الأخلاق الذي أساء للأخلاق الأوربية من خلال الجنون .

5– لقد سحب الجنون من ميدان علم النفس وزجه ميدانَ الفلسفة ، وبذالك فقد اخرج الجنون من دائرة التجريب والعيادة والمختبر والعيادة وأدخله الى عالم الترميز.

6– لقد كان الجنون محض علاقة الإنسان بذاته ، وفوكو أضفى عليه علاقة الإنسان بالإنسان وعلاقة الإنسان بالله .

7– في الجنون إمكانية جمع المتناقضات بكلّ سهولة السجن والحرية. فالسجن هذا الملاذ الأمن ونقطة اشتغالات حرية العقل لدن المجنون في فضاء محدود.

8– إنّ الوعي بالجنونية لم يكن وعياً تاريخياً تواصلياً، وإنما وعي متشظٍ يحدث قطيعة معرفية من كل حقبة مما يؤدي إلى خسران تواصلية الوعي التاريخي.

9– أبرز لنا في بعض المواقف أنّ الجنون يُحضِر العقل بقوة خاصة في إشارته إلى خوفه من الأمراض المعدية.

10– إنَّ تأويله لسفينة الحمقى ، أرى أنه قد استفاد من سفينة نوح وتوصيفها وتأويلها فلسفيا.

11 – كَشفَ عن سوء توظيف الدين للإغراض غير أخلاقية

12– أجهض فوكو على غرور العقل الأوربي في ادعائه ، لقيمة الإنسان وأهمية كيانه ووجدانه بأهانة الجنون .

- المصادر -

١ –ما الأدب ؟ ، جان بول سارتر ، ت. محمد غنيمي هلال ، دار النهضة ، القاهرة ، بدون طبعة وتاريخ .

٢ -تاريخ الجنون في العصر الكلاسكي ، ميشيل فوكو ، ت. سعيد بنكراد، المركز الثقافي العربي ، دار البيضاء – بيروت ، الطبعة الأولى ، 2006 ،

٣ -صراع التأويلات دراسات هيرمينوطيقية ، بول ريكور ، ت. منذر عياش ، دار الكتاب الجديد المتحدة ، طرابلس ، الطبعة الأولى ، 2005

٤ -فلسفة التأويل ، هانس غيورغ غادمير ، ت. محمد شوقي الزين ، منشورات الاختلاف ، الجزائر ، المركزالثقافي العربي ـــ الدار العربية للعلوم ، بيروت الطبعة الثانية ، 2006 .

٥ -التأويل بين السيميائيات والتفكيكية ، أمبرتو ايكو ، ت. سعيد بنكراد ، المركز الثقافي العربي ، دار البيضاء ، الطبعة الاولى ، 2000.

٦ -العلم والتقنية كـــــ " إيديولوجيا" ، يورغن هابرماس ، ت. حسن الصقر ، منشورات الجمل ، كولونيا ، المانيا ، الطبعة الاولى ، 2003 .

٧ -الطاقة الروحية ، هنري برغسون ، ت. علي مقلد ، المؤسسة الجامعة للدراسات والنشروالتوزيع ، بيروت ، بدون طبعة وتاريخ.

٨ -العقلانية التطبقية ، غاستون باشلار ، ت. بسام الهاشم ، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ، بيروت ، الطبعة الأولى ، 1984.

٩ -حفريات المعرفة ، ميشيل فوكو ، ت. سالم يفوت ، المركز الثقافي العربي ، بيروت ، دار البيضاء ، الطبعة الثانية ، 1987 .

١٠ – نقد الحداثة ، ألان تورن ، ت. أنور مَغيث ، المجلس الاعلى للطباعة ، بدون مكان وطبعة ، 1997 .

١١ – قلق في الحضارة ، سيغموند فرويد ، ت. جورج طرابيشي ، دار الطليعة للطباعة والنشر ، بيروت ، الطبعة الثالثة ، 1982.

12 – فصام العقل أو الشيزوفرينيا ، علي كمال ، دار واسط للدراسات والنشر ، لندن ، الطبعة الأولى ، 1987 ، ولمزيد من التفاصيل مراجعة الفصل "طرق العلاج" ص273 – 328 .